آيات في التنمية البشرية

نملة تعلمنا سلوكيات التنمية البشرية (9/1)

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج: 23 يونيو 2016

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

تخيل معي هذا المشهد؛ سيدنا سليمان عليه السلام يقود ذلك الجيش العظيم لأداء مهمة مكلف بها من اللّه عز وجل، جيش بما يحمله من معدات وأجهزة وأفراد وخيول وجمال وبقية الكائنات التي عادة ما تصاحب نبي اللّه سليمان عليه السلام، هذا الجيش عندما يسير فإنه حتمًا يثير الغبار ويهز الأرض هزًا، ويلقي في النفوس الرعب قبل حتى أن يصل إلى العدو.

وعادة تبحث الجيوش لها عن أقصر الطرق للوصول إلى العدو أو لإنجاز المهمة، فمن الاستراتيجية الحربية أن تفاجئ العدو وتباغته، والطرق القصيرة تعد من إحدى الطرق الفعالة لمباغتة العدو.

هذا الجيش قرر أن يسلك وادي النمل، وليس مهما أن نعرف أين يقع هذا الوادي فلو كان موقع هذا الوادي مهمًا لذكره اللّه سبحانه من ضمن الآيات، وحينما يبلغ هذا الجيش الذي يقوده أحد أنبياء اللّه العظام وهو سيدنا سليمان عليه السلام وادي النمل يحدث أمر عجيب، يتوقف الجيش ليغير مساره وذلك احترامًا وتقديرًا لدور كائن واحد من أصغر الكائنات الحية التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة وهو النمل، فما الذي حدث ؟

يقول تعالي في سورة النمل الآية 18 (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)، ولم تنته الآية والقصة عند هذا الحد وإنما يستكملها اللّه سبحانه وتعالى في الآية التالية 19 (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)، فلماذا تبسم نبي اللّه من قول هذه النملة؟ ولماذا غيّر طريقه ؟

ويمكن أن يلاحظ أن الآية الكريمة 18 على قصرها اشتملت على معانٍ بلاغية كثيرة، فقد جمعت هذه الآية عشرة أنواع من الخطاب في موطن واحد، وهذه الأنواع هي: النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعتذار. قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة «فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة، النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة، ولذلك أعجب سليمان قولها، وتبسم ضاحكًا منه، وسأل اللّه أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها» ويواصل «ويكفي في فطنتها ما نص اللّه عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده (يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)».

وربما يفسر آخرون هذه الأمور بقولهم، فلما أحست بسليمان فإنها بادرت بالأخبار ونادت (يا أيها النمل)، ونبهت (أيها)، وأمرت (ادخلوا) ونهت (لا يحطمنكم) وأكّدت (نون التوكيد) ونصحت وبالغت (يحطمنكم) كلكم فلا يترك واحدة منكم، وبينت من الذي سيحطمهم وأنذرت وأعذرت سليمان عليه السلام (وهم لا يشعرون) ونفت. والنملة، هذه التي وقفت ونادت وحذرت، أو بالأحرى نجد أن الآيتين 18 و19 قد وضعت حوالي 12 سلوكًا من سلوكيات التنمية البشرية المستدامة حتى يتعلم منها البشر بعض أصول التنمية والعلاقات البشرية، وهي كما سنتحدث عنها في مقال الغد إن شاء اللّه.